علم آثار ما بين النهرين = المراحل (١٩٤٦)

ANDRE PARROT : Archéologie Mésopotamienne, Les étapes, Editions Albin Michel, 1946, Paris. 542 p. XVI pls., 9 cartes, 150 figs.

أخرج الأستاذ پارو وهو أمين بمتحف اللوفر وأستاذ بمدرسة اللوفر ومدير حفائر ماري المعروفة الجزء الأول من كتابه عن علم الآثار فيما بين النهرين يصف فيه التقاء الرحالة بالآثار ثم ابتداء اهتمام أهل العلم بدراستها ثم تنظيم البعثات للحفر والبحث . ولم يقتصر المؤلف على سرد الحوادث الخاصة بالحفائر — وكانت متنوعة عديدة ترجع إلى صعوبات الطبيعة الصحراوية ومشاكسة البدو وعدوانهم — بل أتى بوصف مسهب لكل منطقة أدير فيها الحفر وقائمة بجميع الآثار التي وجدت فيها ذاكراً المتاحف التي آوت إليها . مما يساعد على الرجوع إليها في النشرات العلمية الخاصة . فيكاد يكون الكتاب بحثاً شاملا لكل منطقة حفر فيما بين النهرين — أي في الوادي والأجزاء على جانبي الدجلة والفرات واصلا إلى قارقميش شمالا وهي الحدود بين النفوذ الحيثي والبابلي وإلى الطريق الواصل إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً . فتشمل الجزء الأوسط من العراق وأعالي الشام إلى الحدود التركية . مع ذكر شيء غير قليل عن سوس لغناها بالآثار البابلية .

أما من حيث التحديد التاريخي فقد شمل العهود السابقة للسلوقيين من العصور البدائية مع دراسة آثار دورا — أروپوس وسلوقيا وكتيسيفون ، أما وصف الحفائر فمن أقدمها إلى سنة ١٩٣٩ — ووعد المؤلف بإخراج جزء ثان عن الطرق الفنية والمسائل ثم جزء ثالث عن مختصر تاريخي وتطوري .

وهذا الجزء الأول يقع في ٥٤٢ صفحة من القطع الصغير وهو مزود بمائة وخمسين شكلا و ١٦ لوحة و ٩ خريطة . وأشير إلى إعتناء المؤلف بجمع كل ما استحدث من الرسومات المعمارية الخاصة بالمناطق الأثرية من خرائط توقيعية ومساقط أفقية وسومات معادة وذلك في أشكال صغيرة الحجم واضحة الخطوط

مبسطة يسهل بواسطتها معرفة الشيء الكثير عن المناطق العديدة . أما اللوح فهى عن أصول فوتوغرافية متقنة تمثل بحجم كبير قطعاً أثرية هامة من النحت المجسم أو البارز أو الصور كان يصعب الوصول إلى بعضها فى المؤلفات والأبحاث الخاصة (صور عن دورا — أوروپوس وتماثيل وصورة عن مارى) .

وقد ساعد الأستاذ بارو درايته الواسعة بكل ما اختص بحفائر وآثار ما بين النهرين . وقد قام شخصياً بالحفر فى تلو (١٩٣١ — ٢ و ١٩٣٢ — ٣) وفى المدينة الملكية لارسا (١٩٣٣) . ثم فى مارى بالشام (١٩٣٣ — ١٩٣٩) — على وصف المناطق الأثرية وسرد حوادث حفائرها بغاية الدقة . وهو مشروع جديد من نوعه فى دراسة الآثار سواء كان فيما بين النهرين أو غيرها من البلاد .

ودرس پارو فى الباب الأول والثانى والخامس ابتدأ الاهتمام بالآثار إلى القيام بالبعثات العظيمة فى القرن الماضى . أما الباب الثالث فخاص باكتشاف الخطوط المسمارية . والباب الرابع والسادس بسمير والعصور البدائية . ثم الباب السابع والثامن لحفائر الدّيالة وأواسط الدجلة وأعالى الدجلة . والباب التاسع لحفائر أواسط الفرات .

فى الباب الأول جمع المؤلف كل ما كتبه الأقدمون عن الرحالة والمسافرين مما استلفت نظرهم من الآثار . ولنذكر أقدم هؤلاء وهو بنيامين من طليطلة Benjamin de Tudèle وقد سافر من إسبانيا فى سنة ١١٦٦٠ ورجع إليها فى ١١٧٣ بعد أن جاب البلاد الشرقية وكتب عن مشاهداته بالعبرية . ثم بيترو ديلا ڤالى (Pietro della Valle) الذى جلب بعض القوالب المنقوشة بالكتابات وهو أول عهد الأوربيين بالنصوص المسمارية (١٦٢٥) . ولعل أهم هؤلاء الرواد الدانماركى كارستن نيبور (Niebuhr) الذى زار الأقطار الشرقية بين ١٧٦١ و ١٧٦٧ ونقل نصوصاً عن مبانى برسيپوليس والفرنسى ميشو (Michaux) وكان بحاثة فى علم النبات (١٧٨٦) وقد جلب معه شاهداً منقوشاً بنص وهو من طراز « الكودورو » الخاص بتحديد العقارات والمقام فى المعابد . ثم من الإنجليز ريتش (Rich) (١٧٨٧ — ١٨٢١) الذى وقع مدينة بابل وبدس نمرود وأربيل ونمرود ومدينة نينوة فى التلين قويونديو وبنى يونس .

وجمع مجموعة من اللوحات والأختام الإسطوانية وكتب مذكرات . ثم باكنجهام (Buckingham) (١٨١٦) . والفرنسيين فلاندان (Flandin) وكوست (Coste) اللذان يوقعان المناطق ويرسمان الآثار أثناء بعثة مرسلة من الحكومة الفرنسية .

يبحث الباب الثانى عن اكتشاف حضارة الأشوريين (١٨٤٢ — ١٨٧٧) بفضل كبار العلماء . وهذه هى المرحلة الأولى من مراحل تطور علوم آثار ما بين النهرين . فمنهم القنصل الفرنسى بوتا (Botta) الذي اهتدى إلى اكتشاف قصر الملك سارجو Sargon ٧٠٥ — ٧٢١ ق . م . (بخور سأباد (Khorsabad) ونشر عنه بمعونة الرسام فلاندان (Flandin) . وقام الإنجليزى ليارد(Layard) (١٧٤٥ — ١٧٤٧) بالحفر فى نمرود وفاز بمساعدة رولنسون (Rawlinson) وأكتشف لحساب المتحف البريطانى قصور خمسة للملوك الأشوريين فى القرنين التاسع والسابع ق . م . وقصر سناقريب ومكتبة أشور بانيال (٦٦٨ — ٦٢٦ ق . م .) فى نينوة (تل قويونديق) . وخلفه رولنسون (Rawlinson) . بينما واصل الفرنسى پلاس (Place — ١٨٥٢) الكشف عن قصر سارجون بخور سأباد الذى يحتوى على مائتين بهو ووقع سور وبوابات المنطقة الملكية . والفرنسى فرنيلFresnel (— ١٨٥٣) فى بابل . وعمل لوفتوس (Loftus) فى ورقا وقويونديق وكشف تيلور (Taylor) عن زيقوراط أور (مقير) والبلدة المقدسة إيريدو (أبو شهرين) . وجمع سميث (Smith) آلاف اللوح المنقوشة بمعونة رسام (Rassam) لحساب المتحف البريطانى . ويلاحظ أنه لم يتبع بعد طريقة فنية للحفر بل بفتح خنادق فى طول المناطق وعرضها ولا يكشف عن المبانى إلا الأجزاء المزخرفة بالمناظر أو النصوص . بل ذهب بعضهم ومنهم المدعو رسام إلى جمع الآثار بواسطة بعض ملاحظى العمال دون الاعتناء بأي توقيع هندسى أو كتابة تقرير .

يصف الباب الثالث (ص ١٠٩ — ١٢٥) المراحل العديدة الصعوبات التى مر بها اكتشاف لغات ما بين النهرين وقراءة كتاباتها (١٧٨٠ — ١٩٠٠) .

وجاء بعده عدد من العلماء روبينسون (Rawlinson) واهتدى إلى قراءة النص الفارسى المنقوش على صخر بيحستون واستكمل الأبجدية المكونة من ٣٦ رمزاً

(١٨٤٩) واكتشف شيل (Scheil – ١٩٠١) اللغة الثانية وتتكون كتابتها من ١١١ رمزاً وتسمى السوسية . أما الكتابة الثالثة وهى أشورية – بابلية وتعرف بالسميرية فيرجع الفضل فى اكتشاف رموزها المقطعية إلى روينسون (١٨٥١) وأوبرت (Oppert – ١٨٥٥) . وأصل رموزها تصويرى كالرموز الهيروغليفية . ودامت هذه الاكتشافات متواصلة لمدة قرن .

وفى الباب الرابع (ص ١٢٧ – ١٦٨) يصف المؤلف اهتداء سارزك (Sarzec) إلى اكتشاف آثار الحضارة السميرية فى تلو (Tello – ١٨٨١) ويرجع عهدها إلى ما حول ٣٠٠٠ ق . م . وقد ساهم الإنجليز بمعرفة بادج (Budge) وكنج (King) فى جمع اللوح والنشر عنها وإدارة الحفائر فى قويونديق (١٩٠٣ – ١٩٠٥) .

عنون المؤلف الباب الخامس (ص ١٦٩ – ٢٦٣) « بدء الاستكشافات العظيمة (١٨٩٧ – ١٩١٤) » وجمع فيه أخبار البعثات العلمية المزودة بكل الوسائل للبحث . واهتم الفرنسيون بحفائر سوس (شوش) واشتهرت بفخارها وبكثرة ثم دى مورجان (De Morgan) . وعمل الألمان فى بابل والقصر وعمران بن على (١٨٩٨ – ١٩١٧) بقصورها وأسوارها المحصنة وزيقوراط والحدائق المعلقة من إنشاء الملك نبودونوصور (Nabuchodonosor) وبعض المعابد واشتهر فى دراسة المنطقة كولدواى (Koldewey) وأندرى (Andrae) وجوردان (Jordan) ونولديكى (Noldeke) وعملوا أيضاً فى بورسيبا (بوس) حيث وجدوا أعلا بقايا لزيقوراط نبوخودونوصر ومعبد نابو . ثم انتقلوا إلى فارا وأبو حطب كيسورا قديماً (من عصر جمدت نصر وحكام لاجاش وأور . وفى ١٩٠٣ بدأوا فى قلعة شرجات (آشورقديماً) وفيها بقايا من عصر حكام لاجاش (حول ٣٠٠٠ ق . م) . وهناك نص من عهد سناقريب (قرن ٧ ق . م .) يصف المدينة وبواباتها الثلاثة عشر بينما وجدت بقايا سبعة بوابات . وذكر نفس النص أسماء ٣٤ معبداً و ٣ زيقوراط . وكشف عن عدة قصور أقدمها من عصر لارسا (٢٠٠٠ ق . م .) . ومن أشوق قصص الحفر حوادث استكشاف تل حلف على يد (Von Oppenheim) فون أوبنهايم الذى زار المنطقة فى ١٨٩٩ ولم

يبدأ الحفر فيها إلا فى ١٩١١ وضاعت آثارها أثناء الحرب (١٩١٤) ووصلت إلى المتحف البريطانى . وأعاد الحفر بعد الحرب (١٩٢٧ — ١٩٢٩) . وينضم المؤلف إلى أصحاب النظرية الخاصة بتأريخ آثار تل حلف وإرجاعها إلى عهد الحكم المحلى كابارا بين القرون ١٢ و ٩ ق . م . ويرى فيها انتاجاً للفن المحلى الذى قلد الفن الحيثى . بينما يرجع آثار جبله البيضا (على بعد ٧٠ كيلو) إلى العصور البدائية من تأثير سميرى . عمل الإنجليز هندرسون (Henderson) وهوجارت Hogarth (— ١٩٠٨) ثم ولى (Woolley — ١٩٢٠) فى قارقميش . ويرجع عهدها إلى العصر البدائى وكانت بلدة محصنة بين العالم الأشورى البابلى والمصريين .

وفى الباب السادس (ص ٢٦٥ — ٣٦٨) يصف المؤلف إعادة الحفر فى سمير ويبحث فى عصر ما قبل الأسرات . وقد زاد على طريقة الحفر فى طبقات أفقية دراسة القطاعات الرأسية (Stratigraphie) إلى مستوى الأرض السليمة . اهتم المتحف البريطانى بعد الحرب الأولى ببلدة إريدو (Eridu) وأرسل فيها كامبل تومسون (Camphell Thompson) ثم هول (Hall) . وهى من أقدم مدائن ما بين النهرين . وعمل أيضاً فى أور (Ur) لمدة ١٢ موسماً . وقد احتوت المدينة على عدة معابد وقصر للملك نابونيو (Habonide) وزيقوراط ترجع إلى الأسرة الأولى وحولها عدة مصلات وجبانة تحتوى على مقابر ملكية هامة . وعملت بعثة إنجليزية فى كيش (Kish) واكتشفت فيها حضارات من عصر بابل إلى أقدم عصور جمدت نصر والعصر الحجرى الحديث .

ومن أهم المناطق المكتشفة بلدة جمدت نصر يرجع عهدها إلى ما قبل الأسرات وتمتاز بحضارة خاصة ذات فخار مزخرف وأختام اسطوانية ويرجع بها بعض العلماء إلى ٣٢٠٠ — ٣١٠٠ ق . م . ويظن أن السكان من عنصر غير سامى أو سميرى . وأعاد الألمان الحفر فى وارقا (Warka) لمدة ١١ موسماً (١٩٢٨ — ١٩٣٩) . وكانت من أهم مدن العالم السميرى منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ أحاط بها سور طوله ٩٧٠٠ متراً . بينما أعاد الفرنسيون العمل فى تلو Tello (١٩٢٩ — ١٩٣٣) ثم فى سنقرة

(Larsa) . وعمل المعهـد الشرقى (Oriental Institute) فى شيكاجو فى المنطقة شرق بغداد ودرس الآثار المكتشفة فى تل أسمر (أشنوناك Ashnunnak) فى ٦ مواسم (١٩٣٠ ـ ١٩٣٦) . ومنها قصر ومعبد يرجع إلى عهد خمدت نصر. وحفروا أيضاً فى خفاجى على الشاطىء الغربى لنهر الديالة (١٩٣١ — ١٩٣٧) . ويشير المؤلف إلى استمرار مظاهر الحضارة من أقدم العصور إلى العصر الساسانى كما يراه فى حفائر كتيسيفون (Ctesiphon) حيث وجدت مجموعة من الأوانى الخاصة بالسحر وزخارف هندسية ونباتية وحيوانية وإنسانية .

أما فى أعالى الدجلة (الباب السابع ص ٣٩١ — ٤٣٨) فقد اختصت البعثات الإنجليزية والأمريكية بالحفر فيها . ودرسوا بلدة نوزو (Nezu) وحضارة الهوريين فيها (١٥٠٠ق.م) وحضارة جازور (Gazur — ٢٥٠٠ق.م) . ثم حضارة ما قبل الأسرات (قبل ٣٠٠٠ ق . م (. وتمكن شبايدز (Speiser) من دراسة الحضارة البدائية فى أشور نتيجة حفره فى رقيبتى جاورا (Tépé-Gawra) وعمل الإنجليز بقيادة كامبل تومسون (Cambell Thompson) فى نينوة (١٩٢٧ — ١٩٣٢) واكتشفوا ٣ قصور (أسور بانيبال وأسور ناظريال وسناقريب) وعدة مبانى وتوصلوا إلى اكتشاف حضارات ما قبل التاريخ بحفر آبار اختبارية إلى مستوى مياه النشع (٢٧٫٥٠ متراً) . وورث الأمريكان حفائر خورساباد عن الفرنسيين (١٩٢٨ و ١٩٣٢ — ١٩٣٥) ودرسوا قصر الملك سارجون ومعابده المختلفة وبوابات العاصمة الجديدة التى استبدلت نينوة المهجورة .

وأنهى المؤلف وصفه للحفائر بمنطقة أواسط الفرات (الباب السابع ص ٤٣٩—٥٢٢) . ومن أهم المناطق بلدة دورا أوروبوس (Dura-Europos) . عمل فيها الفرنسيون بالاشتراك مع الأمريكان (١٩٢٠ — ١٩٣٧) . وامتازت بفن محلى وريت الفنون القديمة (Mari) . وظهرت أهم قطعة فى معبد الآلهة البالميرية والمصلى المسيحى والمعبد الإسرائيلى (٢٠٠ — ٢٤٤ م) ومعبد ميترا (Mithra) فى هيئة مناظر مرسومة وملونة تزخرف الجدران . وتعتبر هذه الصور من أهم المستندات لدراسة تاريخ الفن فى آخر عصر الوثنية والقرون الوسطى .

ولم تدم هذه المدينة التجارية إلا من القرن الثالث ق . م . إلى القرن الرابع م . واكتشف الفرنسيون فى أرسلان طاش (Arslan-Tash) قصراً للملك تيجلاط بيلازار الثالث (Tiglalh-Pilaserm) — ٧٤٥ — ٧٢٣ ق . م) (ويظن أنه من إنشاء سارجون لشبهه بقصره فى خورسأباد) . وبالتل الأحمر (١٩٢٩ — ١٩٣١) حيث درسوا بقايا عاصمة الدولة الآرامية التى استولى عليها سالماتازار الثالث (٨٢٤ — ٨٥٩ ق . م .) وبها قصر أشورى جدرانه مزخرفة بصور ملونة شيد على مساكن آرامية وجبانة قديمة (٢٥٠٠ ق .م .) . وظهرت حضارات شجربازار وتل براك وجوره لحضارات محلية من عصر جمدت نصر . أما مارى وقد حفر فيها رباو (١٩٣٣ — ١٩٣٩) — وكانت بلدة من عصر ما قبل سارجون حكمت بها أسرة من الحكام . ودمرها هامورانى (فى القرن العشرين ق . م .) — وكشف عن معابد وقصر إمتاز بعظمته واحتفاظه لكيانه . وظهر الفن بخواص مشابهة للفن الإيجى .

وقد زود المؤلف كتابه بجدول يشرح بعض الإصطلاحات المعروفة فى علم الآثار وآخر لإختصارات دالة على أسماء مجلات وعناوين الأشكال والأبواب .

هذا ولا يسعنا إلا أن نشيد بهذا المشروع الجديد فى بابه ونتمنى ظهور الأجزاء اللاحقة من الكتاب لعله يسد نقصاً طالما أحس به كل من رجع لمؤلف كونتينو (Contenau) لدراسة آثار ما بين النهرين .

إسكندر بدوى